مجلة كلية الدعوة الإسلامية

مجلة اسلامية . ثقافية . تصدر سنويا

العدد الثالث
1986

- صدى الأدب العربي في الدعوة الإسلامية
- مخطوطات ليبية
- وصول الإسلام إلى ساحل مليبار
- التيارات الفلسفية وعلاقتها بالصراع على الحكم

مِن قَضَايَا ٱلْفِكْرِ وَٱلْعَقِيدَةِ

دراسة في حلقات

الحلقة الثالثة:

عقيدة التوحيد: المسار التاريخي والبعد الإجتماعي

الأستاذ الصديق يعقوب

● الدراسات والبحوث في تاريخ الأديان ومقارناتها في الفكر الحديث والمعاصر انبعثت من مفهوم غربي عن الدين فجاءت نتائجها في إطار هذا المفهوم .

● الإسلام حُمّل أوزار المجتمع الاسلامي بقصد وبغير قصد ثم قرن باليهودية والمسيحية ومن خلال هذا وذاك اهتزت صورته وخفيت حقيقته .

● أقلام المستشرقين تحول بين الغربيين وبين الفهم الصحيح للاسلام ، وبعثات التبشير تعمل على محاصرة الاسلام جغرافياً ، والاتجاهان يمثلان حرباً صليبية عاتية .

● عقيدة التوحيد صاحبت وجود الإنسان منذ كان وإلى الآن لكن فكرة التطور انعكست آثارها على كل شيء فلم تسلم منها حتى قضايا الدين وأسسه .

● المجتمع الإسلامي تذبذب بعد أن أبعدت تعاليم الاسلام عن مركز القيادة ولم يعد للعقيدة أثر في سلوك الفرد ، أو انعكاس على العلاقات الاجتماعية داخل هذا المجتمع .

- 1 -

إنه لمما يثير الدهشة ، ويدعو للاستغراب قبل كشف الدواعي والأسباب ما يلاحظه المتتبع لحركة الفكر وما يتصل من هذه الحركة بمسائل الدين على الخصوص من عناية فائقة في الغرب بالدراسات والبحوث عن الأديان ومواطنها وأتباعها وآثارها الاجتماعية وحركة مدها أو جزرها في هذا المجتمع أو ذاك . ولم يكن بد من أن تتجه أنظار هؤلاء إلى الشرق باعتباره منبت الأديان على تباينها ، وموطن الوحي على تكرره ونقطة الانطلاق للرسالات وللدعوات على العموم .

ولعل هذه الدراسات الغربية عن الشرق وسحره ، وأديانه ومعتقداته ومجتمعاته قد بدأت مع بداية النهضة الفكرية في الغرب . ويمكننا أن نرجع بداية اتصال الغرب الحديث بالعالم الاسلامي إلى تسعة قرون مضت[1] كان اتصال الغرب خلالها بالشرق يتخذ عدة أنماط ، وتحكمه عدة عوامل ، ويمر بمراحل تاريخية يختلف سابقها عن لاحقها . ومن خلال مراجعة سريعة لما تتأتى مراجعته من فهارس الكتب والدوريات بما تحويه من بحوث ومقالات مما صدر خلال هذه الفترة الطويلة بحساب الزمن في التاريخ الحديث والمعاصر ، ومن خلال مراجعتنا لأسماء الكتاب واتجاهاتهم تبعاً للموضوعات التي يكتبون فيها ننتهي إلى نتيجة ربما تكون مثيرة للانتباه هذه النتيجة مفادها هو أن الاسلام قد حظي بالنصيب الأوفى من هذه الدراسات الغربية عن الشرق ثم لتكن الأسباب بعد ذلك ما تكون . وفي مقابل ذلك فإننا حتى هذا الوقت لم نرقب ـ فيما أعلم ـ في العالم الاسلامي هيئة أو قطراً أو أقطاراً مجتمعة ترصد ما يكتبه الغربيون ـ مستشرقون أو مبشرون أو غيرهم ـ عن الاسلام ودون القيام بهذا العمل الفكري الضروري بمنطق الفكر ، وبوعي الدين فلا يتأتى لأحد كائناً من كان أن يصدر حكماً موضوعياً عن موقف الغرب من الاسلام . إنما هي أحكام ذاتية وقتية ظنية لا تغني من الحق شيئاً . إن أمة تحترم نفسها وتصدق في انتمائها إلى دينها وعقيدتها لا يمكن أن تتعامل مع الآخرين في هذا الجانب بهذا النمط من التعامل في هذه الصورة من اللامبالاة .

إن الغرب ولا شك تحكمه في شتى مناحي الحياة، مادية صارخة، وهو يعيش

---

(1) ينظر كتاب : الدراسات العربية والاسلامية في الجامعات الالمانية . المستشرقون الالمان منذ تيودور نولدكه . تأليف : رودي بارت . ترجمة الدكتور مصطفى ماهر .

حضارة أرقام وأجسام لكن هذا الاتجاه لم يمنعه بل لم ولن يغنيه عن البحث في قضايا الدين ، وأثره في المجتمعات قديماً وحديثاً .

وهـذا اتجاه واع يتسم بـالموضـوعية والايجـابية ، ويـوضع في رصيـد الحضارة الغربية مهما تضاءلت نتائجه وآثاره ، وأيا كانت أسبابه وغاياته .

وفي غياب الدور الإسلامي في هذا المضمار تخبّط بعض الكتاب الغربيين فيما يكتبون عن الاسلام ، وعن الدين على العموم . والكنيسة وأقطابها يتحملون تبعة ذلك فيما يتصل بالنصرانية : لأن الكنيسة قد شوهـت صورتهـا من خلال ممـارسات رجالها فنبذ المواطن الغربي المسيحية لأنـه نظر إليهـا من منظور كنسي معتم وازدرى المفكر الغربي المسيحية[2] من خلال ما صورت به من معارضـة لنتائـج الكشف عن نواميس الطبيعة ، ومناقضـة لقوانـين الفكر ، واستعـاض عنها آخـرون ممن لم تخفت لديهم النزعة الفطرية إلى التدين استعاضوا عنها بدين طبيعي عقلي يشبع العاطفة ، ويساير الطبيعة ، ولا يصطدم بالعقل ، ويحترم إنسانية الانسان ، ولكنه يبقى قاصراً عن تزكية الإنسان ، والإحاطة بكل نوازعه لأنه من صنع الإنسان .

ومن خلال مباحث ظهرت تعالج مثل هـذه القضايـا معارضـة للكنيسة ، أو معاضدة لها بُحثت الأديان على العموم ، وكان للاسلام من هذه الدراسات نصيب .

وفي موطن الكنيسة لم يكن متاحاً ظهور دراسات موضوعية عن الاسلام بأقلام كتاب غرباء عن هذا الدين ؛ ذلك بأن من كان من هؤلاء يسير في الاتجاه الكنسي كان لديه حكم مسبق وهو أن ما عدا المسيحية من الأديان هراء لا طائل من ورائه أما من عدا النصارى فهم مارقون وكفـار وثنيون[3] أمـا من كان يعـادي الكنيسة ، ولا يعترف بالنصرانية ديناً فقد اعتبر أن الأديان كلها كما جاء بها مدّعو النبوة، إن هي إلا خبال[4] وقد عبر عن هذا الاتجاه تعبيراً واضحاً وصريحاً المفكر فويرباخ في كتابـه : مـاهية المسيـح . حيث ذهب إلى أن « خلاص العـالم يقتضي العدول عن كـل دين يؤمن بإله مفارق فما هذا الإله سوى خيال يخلع عليه الانسان كمالاته الخاصة . ما هو إلا المثل الأعلى للانسان أو الانسان كـما يجب أن يكون وكـما سيكون[5] . وعـلى

(2) يراجع كتاب الدكتور توفيق الطويل : قصة النزاع بين الدين والفلسفة . ط 2 . ص 189 .
(3) تراجع مقدمتا الطبعتين الثانية والخامسة لكتاب الدكتور محمد حسين هيكل : حياة محمد .
(4) ص 193 : قصة النزاع بين الدين والفلسفة .
(5) يراجع كتاب الأستاذ يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الحديثة . ط 5 . ص 392 .

الرغم من سذاجة هذا المنطق لهذا الفيلسوف إلا أنه قد ساد في الأوساط الثقافية في الغرب ، وتبنته وسائل الإعلام هناك فنشرته بكل السبل في كل العالم . وبمقتضاه كانت النظرة إلى دعوة كل دين نظرة تكتنفها السطحية ، وتتسم بعدم المبالاة . وهذه المواقف المتناقضة المتضاربة كان لها جميعاً آثار سلبية على الاسلام في الغرب وفي الشرق على السواء : لقد اضطرب الفكر من جرائها في الغرب فأتت به الرياح العاصفة متجهة إلى الشرق . وليس من اللازم التأكيد على أن منافذ التأثير والتأثر والانتقال لم تعد قاصرة على ما يكتب فيقرأ ؛ إن شريطاً مصوراً قد صار له من الاستقطاب والاستجابة والتأثير ما يعادل مليوناً من الكتب أو يزيد ، وإن هذا اللون أو ذاك من ألوان الفن الرخيص المبتذل قد يجتذب من الفتيان أو الفتيات ما نخسر بسببه جيلاً كاملاً أو أجيالاً بتمامها .

وإذا كان الحديث هنا في مجال العقيدة فالتساؤ ل المفروض هو : بعد هذا الاتصال غير المتوازن بين الشرق والغرب ،أو بين العالم الإسلامي والعالم الغربي، على طول فترة الاتصال هذه ماذا كانت النتيجة بالنسبة للمجتمع الاسلامي ، وللشباب منه على الخصوص ؟ لقد كانت هنا منطقة فراغ فيما يتعلق بفهم العقيدة لدى الشباب المسلم ، والأثر التربوي لهذه العقيدة في سلوك هؤلاء الشباب ، وكان هذا ـ إلى جانب بعض السلبيات الأخرى ـ كفيلاً بأن تتسلل كل السلبيات في المجتمع الغربي إلى منطقة الفراغ هذه لدى شبابنا . وفي دائرة الدين والعقيدة يكاد أمر العقيدة وأثرها يكون نغمة غريبة في آذان معظم هؤلاء الشباب ، والمحسن منهم من يلتزم الصمت إزاء هذا الموضوع حين يتطرق الحديث إليه لكن المسيئين منهم وما أكثرهم قد تصدر عنهم عبارات نابية في تعبيرات غير واعية بحقيقة هذا الدين وصلته بالحياة .

إن الثقافة الإسلامية قد التصقت بالكتاب وحده بل بنوعية خاصة منه فوجدت في طريقها السدود والقيود ، ومن ثم كانت محدودة الانتشار والتأثير . أما الثقافة الغربية المناقضة فقد تحررت من كل قيد فانسابت مع اللحن الشجي ، وطارت في الجو ، وغاصت تحت الماء ، وساحت في كل الأرض تلاحق الانسان في أي مكان . وهذا فن بارع من فنون الدعاية الناجحة استخدمه الغرب بمهارة فائقة من أجل الترويج لحقه ولباطله . ودرسُنا منه هو أن نستخدمه للحق بعد أن نهذبه ؛ فإن في إهماله حماقة وفي تقليده صفاقة .

- 2 -

قضية أخرى نبتغي الوقوف عندها نظراً لأهميتها في تحديد مسار البحث أي بحث يتصل بالاسلام أو في تحرير محل النزاع كما اشتهر في مناهج البحث عند الاسلاميين . تلكم القضية هي أن الباحث في الاسلام عقيدة وشريعة يلزمه أن يضع في اعتباره ـ كي ينتهي في بحثه إلى نتائج صحيحة لا تتعارض مع أصول هذا الدين ـ أن الاسلام دين ذو أصول كلية ، وقضايا جزئية تفهم في إطار تلك الأصول ، ولا تخرج بحال عنها ، وبهذه المسلمة يمكننا أن نعالج من القضايا في ضوء الاسلام ما لا حصر له . وبهذا الاعتبار فنظام الاسلام في كل الاتجاهات ثابت ثبات نظام الكون ، وهو غني وأصيل لا يرتبط في تشريعاته بأية تشريعات سابقة أو لاحقة سادت أو تسود في مجتمعات غير المجتمع الاسلامي ، وعامل التطور في جانبه التشريعي إنما هو ذاتي فيه ، وإن أُهمل هذا العامل في حقب تاريخية سابقة أو لاحقة فإنما كان ذلك أو يكون بفعل المسلمين لا بروح الاسلام . أما جانب العقيدة في هذا الدين فإن له من الثبات، وعدم التغير بحيث لا يتأتى لأي كائناً من كان أن يضيف إليه أو ينقص منه شيئاً . والمسلمون قد يتفقون مع غيرهم في أصول العقيدة،لا لأنهم أخذوها عن هذا « الغير »[6] بل لأن مصدر العقيدة ، ومرسل الرسل ، ومنزل الوحي واحد هو الله . فإذا كان القرآن هو الكلمة الختامية للوحي فلا مناص من اعتباره بعد توثيقه من قبل غير المؤمنين به المصدر الأول والأخير لعقيدة المسلم ، والمختبر الإلٰهي لكل العقائد التي سادت أو تسود أو ستسود بين أمم الأرض قاطبة، هذا من حيث النظر. أما من جهة الممارسة والتطبيق العملي فإن المجتمع الاسلامي شأنه شأن المجتمعات الانسانية قاطبة قد يقترب من حقيقة الاسلام عقيدة وشريعة، وقد يبتعد عن هذه الحقيقة . والاسلام في كلتا الحالين ثابت إنما المتغير هو المجتمع .

وموضع الملاحظة هنا هو أنه ليس من الموضوعية ولا من الحق في شيء أن نحمّل الإسلام ـ وهذا هو صنيع ثلة من المستشرقين ـ أوزار المجتمع الاسلامي .

---

(6) هذه الدعوى برزت في كتابات بعض المستشرقين . ومن الأمثلة على ذلك :
ـ ما كتبه جولدزيهر في كتاب : العقيدة والشريعة في الاسلام .
ـ ما كتبه فون كريم في كتاب : الحضارة الاسلامية ومدى تأثرها بالمؤثرات الأجنبية .
ـ ما كتبه بروكلمان في كتاب : تاريخ الشعوب الاسلامية .
وذلك في الطبعات العربية لهذه الكتب .

فإذا نظرنا إلى الاسلام من خلال سلوك المجتمع الاسلامي بعيداً عن أصول الدين كما هي ثابتة في القرآن خرجنا بتصور غير سليم لحقيقة هذا الدين . ومنشأ الخلل هنا هو أن هذا المجتمع لا يعيش الاسلام لا في سلوك أفراده ، ولا في شيء من مناشط حياته أو علاقاته مع المجتمعات الأخرى، إنما ينتمي إلى هذا الدين انتماء إسمياً . وهذه الظاهرة الاجتماعية على ظهورها يفضلها كثير من المستشرقين بقصد أو بدونه حين تصدر دراساتهم عن الاسلام بهوى وبغير موضوعية فيجدون تكئة من الأوضاع السائدة في المجتمع الاسلامي ، وينتهون إلى نتائج بعيدة عن الصواب . وهم بهذا يحققون بعض أغراضهم لكنهم يبتعدون بقدر ذلك عن حقيقة الاسلام . شيء آخر جدير بالاشارة إليه هنا ذلكم هو أن الدراسات التي تصدر في الغرب عن الأديان إن لم تتناول الاسلام بمفرده فإنها تتناوله مع العديد من الأديان الأخرى المنتشرة في العالم ومنها اليهودية والنصرانية . وقد برزت في تاريخ الفكر الغربي عدة انتقادات اختص بعضها بنقد اليهودية ، وكان كثير منها موجها إلى المسيحية[7] ويلزم أن نضع في الاعتبار أن هذا اللون من النقد ليس بلازم أن يكون في دراسات متخصصة فقد يأتي هذا النقد عرضاً ولكن بقصد في ثنايا نص مسرحي ، أو في أثناء حوار أو سرد قصصي أو على صورة تحدٍ سافر لمقررات الدين . وما من شك في أن هناك مواطن كثيرة يمكن للناقد أن ينفذ من خلالها إلى هاتين الديانتين ، ونؤكد هذا من رؤية قرآنية واضحة وصريحة ، ومن خلال هذه الرؤية أيضاً نقرر أنه ليس من جديد في مواقف النقد هذه خلال الفترة الطويلة التي تفصلنا عن فترة نزول القرآن حيث بدأ الحوار مع أتباع هاتين الديانتين إلا أن يكون هذا الجديد متميزاً بطابع مادي صارخ ، أو نظرة إلحادية مارقة لا يقام لها وزن في اختبار صدق الأديان ، ولا في مفهوم الفكر الشمولي لدى الانسان .

إن بعض المفكرين في الغرب قد وجهوا عنايتهم لنقد اليهودية والنصرانية ومن

---

(7) اعتمدت في استقاء وتوثيق المعلومات المتعلقة بهذه القضية على عدد من المراجع العربية ومنها :
- موسوعة تراث الانسانية .
- مقدمة كتاب : صفوة البيان في تفسير القرآن . لمؤلفه محمد فريد وجدي . مطبعة الشعب . مصر . 1321 هـ .
- قصة النزاع بين الدين والفلسفة . قد تقدم ذكره .
- مراجعات الأستاذ عباس محمود العقاد في اسلامياته .
- مجلة الفكر العربي : الهيئة القومية للبحث العلمي . العددان : 31 ، 32 .

ثم لنقد الدين على العموم وهم بهذا لم ينصفوا الاسلام إذ قاسوه، بهاتين الديانتين في صورتهما المحرفة التي لم يبق فيها من الأصل الصحيح إلا القليل . إن كل السلبيات التي علقت بهاتين الديانتين خلال تاريخهما الطويل لم يكن شيء منها في الاسلام ، وإن ما وجه إلى هاتين الديانتين ـ كما هما في تصور أتباعهما ـ من نقد موضوعي فكل أسسه موجودة في القرآن . وإذا كان نقاد اليهودية والمسيحية قد نقدوا هاتين الديانتين على علم فما من شك في أن ما توفر لديهم من علم عن الاسلام لا يكفي في عملية النقد ، ولا يسمح بالربط بين هذا الدين وغيره، من الأديان بهذه الصورة المتعسفة . لقد كانت النتيجة لكل هذا أن اهتزت صورة الاسلام لدى المواطن الغربي الذي انتهى به الأمر إلى ازدراء الدين على العموم . هذا في إطار الفكر . والفكر الديني منه خاصة ، ولدى الرأي العام في الغرب أما إذا نظرنا إلى القضية من زاوية استشراقية تبشيرية خاصة فإن لذلك شأناً آخر .

- 3 -

إن المستشرق مفكر غربي ـ أصالة أو انتماء ـ عنى بحضارة الشرق . وداخل هذا الاطار العام تدخل كل توجهات المستشرقين وانتماءاتهم ورغباتهم وأهوائهم . وربما صح القول بأن معظم دراسات المستشرقين قد انصبت على دراسة الاسلام ، وتاريخ المجتمع الاسلامي بما يقتضيه المنهج الحديث في دراسة التاريخ العام . وهم، وإن لم يهملوا بقية المجتمعات الشرقية غير الاسلامية وكذلك لم يهملوا أديان الشرق الأخرى إلا أنهم وجدوا في محور الاسلام ، والمجتمع الاسلامي موضوعات خصبة للدراسات والبحوث كما وكيفاً. والكاتب الغربي قد لا يعبأ بأمر النصرانية أو اليهودية بل قد يكون ملحداً قبل انتمائه إلى هذه الطائفة ولكن ما إن يدخل في سلك المستشرقين حتى ينقلب حوارياً أو رسولاً بالمفهوم النصراني لهذا المصطلح . وإذن فقد يكون مسيحياً انشاء لا نشأة. ولكن الرغبة في البحث ، وحب الاطلاع والموضوعية والنزاهة كلها أمور يتستر وراءها هذا الانتماء وذلك الانشاء .

والمستشرق وهو يبحث في الاسلام تواجهه مجموعة عقبات لا تحول بينه وبين هدفه بل تحول بينه وبين الوصول إلى الحقيقة أما هدفه المرسوم فإن هيئات أخرى تساعده فيتعاون معها في تحقيقه . أما العقبات فمنها : انتماؤه إلى عقيدة مناقضة للعقيدة التي يدرسها ، ويكتب عنها ولنفرض أنها عقيدة التوحيد في مقابلة عقيدة

التثليث التي هي كفر صريح بنص القران . وقد يؤدي البحث المنصف والدراسة الموضوعية بالباحث إلى أن ينسلخ من عقيدته التي ينتمي إليها ، ويعتنق العقيدة التي بحث أصولها فاقتنع بأحقيتها ولكنه إن فعل ذلك قصرت خطاه ونحى جانباً ليترك المكان لغيره ممن يقدر على السير في الطريق إلى منتهاه .

ومن العقبات أمام المستشرق أيضاً كونه مضطراً إلى أن يتعامل مع القرآن باعتباره مصدر العقيدة ، والشريعة لكن حواجز تحول بينه وبين التمكن من الفهم الصحيح لدلالات الألفاظ والتراكيب في القرآن الحكيم : فحسه اللغوي وعاطفته وتركيبة عقله ، وتكوينه النفسي ، والاجتماعي وانتماؤه لحضارة مغايرة . كل أولئك يحول بينه وبين فهم القرآن . ونتيجة ذلك أن المستشرق في وضعه هذا لن يفهم ـ مثلاً ـ عقيدة التوحيد ، وأسسها ، وبراهينها ، وضرورتها ، وتهافت ما يناقضها من عقائد الشرك ، والحلول ، والاتحاد ، والوثنية ، والالحاد .

لهذه الأمور وغيرها مما يتصل بها كانت عُدة المستشرق في بحثه في دائرة الاسلام مجموعة من الشبهات التي أثيرت داخل المجتمع الإسلامي ذاته تضاف إليها مجموعة من التحرصات ، والمغالطات التي أضفت عليها بعض الدوائر العلمية المتعاطفة مع الكنيسة طابع البحث والموضوعية . يضاف إلى كل ذلك عدم وجود جبهة مضادة داخل العالم الاسلامي تقوم بالهجوم أو تتولى الدفاع في محيط الفكر والثقافة ، وفي الحوار غير المتكافىء . وقد أدى هذا الوضع غير المتوازن إلى نتائج سيئة : فسادت في الغرب بفعل دراسات المستشرقين أحكام على الإسلام شوهت عقيدته ، وأساءت إلى شريعته . أما رد الفعل داخل العالم الاسلامي فكان موجة من الشك ، وإثارة الجدل حول كل قضايا الاسلام لايثار الشك قولاً في صورة حوار أو جدل إنما ينعكس على سلوك الأفراد داخل هذا المجتمع حيث لم تعد للاسلام كلمة في توجيه هذا السلوك .

وإن انتزاع هذه الأمة من دائرة توجيه الاسلام ، والاحتكام إليه أو قل إن انتزاع الإسلام من ضمير هذه الأمة نتيجة مُرْضية يستحق فريق الاستشراق من أجل تحقيقها خير الجزاء ، وأجزل العطاء . أما التبشير فالأمر معه أهون لأن فريقه يعمل بطريقة أوضح وما أشبه المبشر بثور هائج يصول ويجول في ساحة المصارعة لا يلوي على شيء إلا على هذا الغريم الذي يلوح له بهذه القطعة من القماش فيظنه يكون حيث هي .

إن المبشر يعمل بهذه الطريقة الطائشة وهذا ما يفسر لنا ضآلة النتائج لدى جمعيات التبشير المنتشرة في كل الأقطار على الرغم من الخطط الموضوعة من قبل المتخصصين ، والأموال التي تنفق بسخاء على هؤلاء . وهذا هو العمل الذي يختلف فيه المبشر عن المستشرق إنه اختلاف في المنهج وفي الوسائل يلتقي فيه الفريقان عند الهدف المنشود .

إن الاسلام الذي تحطمت الصليبية على جداره هو الهدف الخفي والمعلن في خطط المبشرين[8] إلى جانب أهداف أخرى دينية أو سياسية يدور المبشر في فلكها . هدف المبشر أن ينشر عقيدة الكنيسة كما هي ، ويبشر بها كما أذاعتها المجامع الكنسية . وقد أوهمه رجال الكنيسة والقائمون على أمرها أن رسالته لا تتم إلا إذا نال من كل العقائد المخالفة لعقيدة التثليث ودحضها بالحق ، أو بالباطل ، ولا ينتهي عمله إلا بدخول جميع الكفار ـ ومنهم المعتقدون بالتوحيد ـ تحت راية الكنيسة في ظل الصليب المتوهم . وإذا كانت الحضارة الغربية هي السائدة اليوم في كل أقطار الأرض فقد توهم القوم أنه يجب أن تسود النصرانية حيث تسود الحضارة الغربية . وقد أوكلت المهمة للمبشرين فاتجهوا إلى القارة السمراء في الجنوب حيث تتباين الطقوس والعقائد ، وتتعدد بتعدد القبائل أو تزيد . كما اتجهوا إلى أقصى الشرق حيث يزيد عدد الأديان والدعوات على عدد الأمم والقوميات .

ينشرون هنا وهناك عقيدة الكنيسة فيستبدلون باطلاً بباطل « ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً أولئك في ضلال بعيد »[9] وهذا هو منطلق الاسلام في معارضته مثل هذا العمل . فإذا أضيف إلى ذلك ما يقوم به المبشرون خلال عملهم هذا من تحريف للإسلام وتزييف لعقيدته ، وتاريخ هذه العقيدة . تأكدت لدينا ضرورة التصدي لعمل المبشرين ، ومتابعته ورصد حركته من أجل تمحيص الحق ، ومحق الباطل في أعظم قضية عرفها الانسان ، ودافع عنها وهي العقيدة .

- 4 -

أمر آخر جدير بالاشارة إليه لما له من صلة بقضية العقيدة هذه ذلكم هو مفهوم

---

(8) الكاتب المسلم محمد أسد « ليوبولد فايس » في كتابه الذي وفق في موضوعه ولم يوفق ـ فيما أرى ـ في عنوانه : الاسلام على مفترق الطرق . في هذا الكتاب الذي ترجمه الدكتور عمر فروخ نجد إشارات عدة في مواضع متعددة إلى هذه القضية .

(9) الآية 3 سورة إبراهيم .

« التطور » على أي وجه يلزم أن نفهم هذا المصطلح ، وبأي منهج نتعامل معه ؟

إنه باعتباره مصطلحاً عاماً يظهر للوهلة الأولى أنه يمكن تطبيقه على كل مناشط الحياة لدى الإنسان ، فكراً وعملاً فهماً وسلوكاً . ومنذ ظهور فكرة التطور في تاريخ الفكر الغربي اتجهت الأوساط الفكرية ، واتجه الرأي العام الغربي بجملته إلى تبني هذه الفكرة بايجابياتها وبما تحمل من سلبيات[10] .

ومن بين فروع الدراسة التي تبنت فكرة التطور هذه ، وروجت لها دراسات الغربيين عن الأديان . وألحت هذه الفكرة عليهم فطبقوها في بحوثهم ودراساتهم ، وأخضعوا لها ما يعرفون عن الدين ، وما لا يعرفون ، وأصبحت عبادة « الطوطم » لا تختلف ـ عقدياً عند هؤلاء ـ عن عبادة الله الواحد كلها حلقات في تاريخ تدين الإنسان لا يميزها غير تعدد البيئات ، ومرور الزمن ، ودرجات التمدن لدى الإنسان . وفي هذا المجال ، وبهذا المنهج تناول الدارسون النصوص الدينية فغابت قضية توثيق هذه النصوص لهذه الأديان من أجل بحثها ، والكتابة عنها رغم أهمية التوثيق لمثل هذه الدراسات .

وإذا قسنا كمية الدراسات التي تصدر في العالم الإسلامي في التاريخ الحديث من كتاب إسلاميين ، أو هيئات إسلامية معتبرة في هذا المجال مجال دراسة ومقارنة الأديان لو قسنا هذه إلى كمية الدراسات في هذا المجال ذاته والتي كتبها كتاب إسلاميون قدامى لكانت الدراسات الحديثة في العالم الاسلامي ضئيلة إلى جانب تلك . وإذن فقد غاب أو غيب في تاريخ فكرنا الحديث والمعاصر رأي الاسلام وصوته في هذا المضمار وكانت هذه فرصة نادرة للدارسين الغربيين يكتبون ما يشاؤ ون ، ويذيعون ما يكتبون . ويكفي مثالاً على ذلك أن الحقيقة الكبرى التي أكدتها نصوص القرآن جملة وتفصيلاً وهي أنه ما من أمة إلا خلا فيها نذير ، وأن كل رسول كان لب رسالته توحيد الله . هذه الحقيقة قد طمست معالمها في هذه الدراسات المقارنة . وهذا الأمر راجع بطبيعة الحال إلى عدة عوامل ، لعل أهمها أن هذه الدراسات لم تتبن منهجاً علمياً يعتمده الباحث في بحثه كما أنها اعتمدت معلومات تاريخية لا تصمد أمام النقد التاريخي ، ولا يقرها منهج التاريخ العام الذي هي جزء منه .

---

(10) بحث هذه القضية بصورة مفصلة الأستاذ محمد قطب في كتابه مذاهب فكرية معاصرة .

يضاف إلى ذلك أن الباحثين في مقارنة الأديان تعاملوا مع الأديان باعتبارها ظاهرة اجتماعية لا تختلف في جوهرها عن بقية الظواهر الاجتماعية . ولو تعاملوا مع الدين باعتباره حقيقة واقعة لها أصولها الثابتة لأضنوا أنفسهم في البحث عن أصوله ، والعمل على توثيق نصوصه : فإما انتهوا إلى حقيقته المستخلصة من هذه النصوص لا من استنتاجاتهم هم ، أو توقفوا عن البحث احتراماً للدين ، وعملاً بأصول منهج البحث ومقتضياته . ويوم أن تسود هذه الروح أوساط البحث في الأديان في الغرب وفي الشرق على السواء تقترب الانسانية من الفهم الصحيح للدين ، ومن الوعي الشامل لرسالته ، وتستبعد من دائرة الأديان كل ما علق بها خلال تاريخها الطويل من خرافات وأوهام وأساطير ، وتتخذ موقفاً رصيناً من وحي الله الحق يختلف عن موقفها من عالم الخيال والأسطورة . وموئلها في ذلك هو الوحي الحق . والسبيل إلى هذا الوحي للتمييز بين هذه النصوص المقدمة في هذا الإطار بدعوى حقيتها وأحقيتها هذه السبيل هي التوثيق بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى الموضوعية والمنهجية .

والقرآن ليس موضع شك عندنا نحن المسلمين ، وليست هذه عقيدة وحسب ولكنها حقيقة تاريخية إن لم تكف الباحثين من غير المسلمين فلهم أن يبدأوا البحث من جديد ، وشرطنا في ذلك أن يستخدموا أدوات البحث اللازمة لهذا العمل . وأولاها التجرد للبحث بحثاً عن الحقيقة . هذه الحقيقة التي تبرز جلية في آي القرآن الحكيم وهو يتتبع تاريخ الانسان منذ كان . ويرْصد مسيرته مع العقيدة، عقيدة التوحيد كاشفاً خلال ذلك عن أثر هذه العقيدة في تربية الفرد ، وصياغة المجتمع السعيد على نمط فريد في صورة تنشدها الإنسانية في نشأتها ، وأثناء نموها ، وبعد رشدها .

- 5 -

إن بحث قضية العقيدة تاريخياً مهمة يلزم أن يتولاها الباحث بحذر شديد بعيداً عن التخمينات والظنون . ومن هنا نعلم أن ما جاء به الوحي في القرآن الكريم هو سند الباحث في هذه القضية . يستوي في ذلك ما يتعلق بأسس عقيدة الايمان بالله الواحد ، أو ما يمثل كشفاً لجوانب الزيف والانحراف في العقائد المخالفة . وبهذا الاعتبار فالقرآن الكريم يمثل وثيقة ثمينة يحتاج إليها المؤمن في إيمانه ، ويعتمد عليها الباحث في بحثه . وهذا الاعتماد على هذه الوثيقة من قبل المؤمن أو الباحث لا يعني إهمال ما عداها من مصادر تاريخية بحتة في صورة مكتوبة أو على هيئة حفريات كشفها

أو سيكشف عنها علماء الآثار ، أو من مصادر جغرافية . كل هذه تعتبر مصادر لمعرفتنا بحقيقة الايمان بالله الواحد ، وأثر هذه الحقيقة في حياة المجتمعات البشرية . فتلك المصادر لها أهميتها بمنطق القرآن ذاته ﴿ أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثاراً في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق ﴾[11] لكنها تبقى ثانوية بالنسبة للقرآن بحقائقه الثابتة التي لا ينال منها مرور الزمن .

ومن الحقائق القرآنية الثابتة فيما يتعلق بمفهوم الايمان الصحيح الذي هو ذاته التوحيد من هذه الحقائق النزعة الفطرية إلى الايمان بالله الواحد لدى كل إنسان بالتجربة الشخصية المباشرة . أما منشأ هذا الايمان الفطري بالله الواحد فهو : ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم قالوا : بلى شهدنا ﴾[12] وهذه الشهادة هي التي كانت فيما بعد مرتكز الدعوة إلى الايمان بالله الواحد : ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ﴾[13] وهي أيضاً مكمن السر في أن كل الرسالات الإلهية كانت دعوة إلى التوحيد . أي أنها كلها كانت تفترض الايمان بوجود الله سلفاً لدى كل البشر[14] وإنما يبعث الرسل إلى الأمم ليزيلوا مظاهر الشرك ، ويعلنوا في كل حقبة من تاريخ الانسانية الدعوة الصريحة إلى التوحيد .

وانطلاقاً من هذا الايمان الفطري بالله الواحد اقتضت حكمة الله أن يبعث في كل أمة رسولاً يبرز إيمان الفطرة هذا ، ويرشد إلى براهينه ، ويدعو إلى مقتضياته في السلوك الفردي والجماعي . وقد سجل القرآن هذه الحقيقة التاريخية ليكون الرسول الخاتم وتكون الأمة الاسلامية كلها على بينة من أمر العقيدة : ﴿ إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ﴾[15] .

---

(11) الآية 21 سورة غافر .

(12) الآية 172 الأعراف . يرجع إلى كتاب : عبدالكريم الخطيب : التفسير القرآني للقرآن ص 514 . الجزء التاسع . طبعة دار الفكر العربي .

(13) الآية 30 الروم . يراجع تفسير أبي السعود . الجزء الرابع ص 183 . طبعة صبيح .

(14) يراجع في هذا المبحث كتاب الدكتور عبدالحليم محمود : التوحيد الخالص أو الاسلام والعقل .

(15) الآية 24 فاطر .

وفي صورة من صور القرآن البلاغية ، وروعة بيانه يختزل تاريخ العقيدة وتاريخ الرسالات الإلهية ، ومحتواها كلها ، وموقف كل الأمم من أولئك الرسل وتلك الرسالات كل ذلك في صياغة تمثل طرفاً من الاعجاز البياني في القرآن الكريم : ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة ﴾[16] وهذا القسمة الثنائية للناس من حيث مسلكهم العقدي ثابتة بالتاريخ ـ كما يحكيه القرآن ـ في الماضي ، وهي ثابتة بالمشاهدة في الحاضر كأنها سنّة من سنن الله في الطبيعة . ولعلها سنّة من سنن الله في بني الانسان فيما سلف وفيما يأتي من الزمان .

- 6 -

وإذا كان الله قد فطر الناس جميعاً على الايمان بالله الواحد ، وإذا كان سبحانه قد اقتضت مشيئته أن يؤكد هذا الايمان الفطري بإرسال الرسل داعين إلى الله فإن حكمته قد اقتضت إرسال الرسل إلى كل الأمم . أما ما اقتضاه عدله فهو أن لا يؤاخذ الناس ولا يحاسبهم بمقتضى الإيمان الفطري وحده فهذا الايمان لا تظهر معالمه إلا من خلال رسالة الرسول وبيانه ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً ﴾[17] وليس هناك ما يدعو إلى هذا التمحل والتأويل في فهم معنى الرسول للخروج به عن معناه الحقيقي الاصطلاحي الظاهر إلى معنى مجازي كالعقل مثلاً لجعل العقل وحده مناط التكليف والمساءلة[18] ومن ثم يتضاءل دور الوحي ويصير ثانوياً . هذا الموقف ـ فيما أرى ـ جنوح بالعقل ، وشطط في الفكر لا تقره طبيعة العقل ذاتها . ومن دلائل بطلانه أو عدم أحقية ما يزخر به تاريخ الفكر القديم والحديث من هذه المذاهب

---

(16) الآية 36 النحل .

(17) الآية 15 الاسراء . في معنى هذه الآية يراجع تفسير الكشاف للزمخشري وتعليق ابن المنير على هذا التفسير : المجلد الثاني . ص 653 ط دار الكتاب العربي . بيروت .

(18) هذا الاتجاه العقلي المتطرف روجت له وتبنته احدى المدارس الفكرية في تاريخ الفكر الاسلامي وهي مدرسة المعتزلة . أما في تاريخ الفكر الغربي قديماً وحديثاً فقد ظهر هذا الاتجاه إلى جانب اتجاهات شتى لم تكن الغلبة لواحد منها دائماً إنما كانت تشبه الأزياء في ظهورها وامتزاجها . في تفصيل هذه الاتجاه المتطرف ونقده يراجع كتاب الأستاذ محمد قطب : مذاهب فكرية معاصرة . وفي كتاب ديبور الذي ترجمه الدكتور أبو ريدة : تاريخ الفلسفة في الاسلام . ط 5 ص 28 إشارات إلى هذا الاتجاه .

العقلية المتضاربة التي يصدم بعضها بعضاً إذ العقل الذي يمكنه أن يبني يمكنه أن يهدم كذلك . وإذا صح هذا فلا مناص من التسليم في قضية العقيدة بضرورة ارسال الرسل .

- 7 -

لعله من المؤكد أن الفكر الانساني في جملته والفكر الديني منه بالخصوص مدين للقرآن الكريم بما لديه من حقائق عن النشأة الأولى للانسان ، وهبوطه إلى الأرض ، واستقراره فيها ، ومدى اتباعه لهدى الله ، أو إعراضه عنه . ولأمر ما لم يتأت القطع به أهمَل الاتجاه العام للفكر الانساني هذه المحصلة التاريخية الثمينة من الحقائق الدينية ، والاجتماعية التي سجلها القرآن الكريم بعناية فائقة ، ودقة متناهية لا نجد نظيراً لها أو ما يقاربها حتى في تلك المعلومات المستقاة من أسفار العهد القديم التي يتضمنها ما يعرف لدى النصارى بالكتاب المقدس تلك الأسفار التي لم تصمد أمام البحث العلمي والنقد التاريخي[19] والتي تُظهِر مقارنتُها مع القرآن الكريم ما علق بها من تزيد وما نالها من تحريف[20] وإذا كان منهج الفكر البحت يقتضينا أن نتصفح صحائف العهدين القديم والجديد مع تتبعنا لآيات القرآن فإن مقتضى الايمان بحقائق القرآن هو أن نتناول تلك الصحائف بحذر واضعين في اعتبارنا كل الظروف التي أحاطت بتأليفها ، وانتشارها مستعينين بمنهج القرآن في نقدها ، وكشف مواطن الزلل فيها . وتكفينا هنا في هذا الموضوع من البحث الاشارة إلى أن الله الواحد الذي هو موضوع عقيدة التوحيد ، والذي دعا إلى الايمان به كل الرسل من لدن آدم عليه السلام إلى خاتم الأنبياء محمد ﷺ مروراً بإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام أقول : الله الواحد موضوع العقيدة هذه ليس هو الإله الذي اهتزت صورته في أسفار

---

(19) يراجع في ذلك : رسالة في اللاهوت والسياسة . تأليف سبينوزا . ترجمة وتقديم : الدكتور حسن حنفي . مراجعة الدكتور فؤاد زكريا .

(20) للوقوف على صور من هذه المقارنات بين ما ورد في القرآن الكريم وبين ما ورد في الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد يراجع كتاب : مدخل إلى القرآن الكريم عرض تاريخي وتحليل مقارن . تأليف الدكتور محمد عبدالله دراز .

وبصورة جزئية أقل تفصيلاً يراجع كتاب : الظاهرة القرآنية . تأليف الأستاذ مالك بن نبي ترجمة عبدالصبور شاهين .

العهد القديم كما أنه ليس هو الإله الذي صورته الأناجيل المعتمدة في العهد الجديد بصورة أبسط ما يقال بشأنها أنها صورة غير معقولة لأنها تخلط الكمال بالنقص ، وتجمع بين المطلق والمقيد واللامتناهي والمتناهي والخالق القديم والمخلوق الحادث . وبالجملة فهي تجمع بين المتناقضات . وهذا الوضع كاف لإبعادها من دائرة الايمان بالله الواحد . ولسنا بصدد بحث الظروف والملابسات والأطوار التي مرت بها عقيدة النصارى هذه حتى انتهت إلى ما انتهت إليه . كما أن المماحكات والاستعمالات اللفظية المتعرجة واستبطان المعاني البعيدة كل أولئك لا يستقيم مع مفهوم العقيدة الصحيحة المتمثلة في الايمان بالله الواحد وما تستلزمه هذه العقيدة من وضوح في حقيقتها ، وفي براهينها ، وفي منهج الدعوة إليها . وإذن فنحن مضطرون إلى البحث عن مصدر آخر نستكشف منه معالم عقيدة التوحيد كما جاء بها عيسى ومن قبله موسى ومن قبلهما الرسل عليهم جميعاً صلاة الله وسلامه . وقد سلف القول بأن القرآن الكريم هو المصدر إذ هو سند كل مؤمن بالله الواحد ، وضالة كل باحث عن الحقيقة . ويوم ينصف البحث القرآن ، ويضعه موضعه ويتفهمه باعتباره الكلمة الختامية لوحي الله والحبل المتين الذي يصل الانسانية بباريها حينئذ يكون للمعرفة وضع آخر وللحضارة شكل مغاير ، ولتاريخ الانسانية مسار جديد : ﴿ يأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد . إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد . وما ذلك على الله بعزيز ﴾[21] .

- 8 -

قد لا يكون البحث مضنياً لمن يريد التحقيق في عقيدة التوحيد باعتبارها مرتكز الايمان وذلك من حيث مسارها التاريخي مع دعوة كل الرسل ، وفي حياة كل الأمم . وخلال هذا البحث وفي إطاره كذلك يمكن التعرف على عدد من العقائد الضالة التي جاء الرسل جميعاً من أجل إظهار فسادها ، واستبدال عقيدة التوحيد بها .

إن القرآن الكريم سجل حافل بالحقائق في هذا الموضوع يعني بالكليات ولا يهمل الجزئيات . والملفت للنظر هنا أن القرآن الكريم يقدم هذه الحقائق عن الايمان

(21) الآيات : 15 ـ 16 ـ 17 فاطر .

بالله الواحد كما جاء به الرسل إلى كل الأمم يقدمها في أسلوب قصصي أخاذ يشد إليه المؤمن والمشرك كليهما . وينقل السامع إلى مسرح الأحداث ، ويصور الوقائع كأن لم تنته إلا قبل قراءة النص بقليل وخلال هذا السرد القصصي الممتع والمقنع تبرز مسألة الايمان بالله الواحد حقيقة تلمع كومضات الضوء تأخذ بالبصائر لتستولي على كل كيان السامع ثم تستقر في نهاية المشهد وقد يتلاشى كل ما عداها .

وهذا هو منهج القرآن التربوي التعليمي في عرض أسس العقيدة على الناس ؛ فالانسان ليس عقلاً خالصاً ، أو قلباً فقط ، أو عاطفة بمفردها ولكنه كل هذه مع غيرها مجتمعة لا يعلم خصائصها ، ولا نسب تركيبها إلا خالق الإنسان . ولعل هذه اللفتة تسمح لنا بأن نأخذ طريقنا من خلال نصوص قرآنية إلى بداية الطريق في هذه المسيرة الطويلة مسيرة الانسان في هذه الحياة مهتدياً بهدى الله أحياناً ضالاً باتباع الهوى وغواية الشيطان في كثير من الأحيان .

- 9 -

من خلال عدد من الآيات في القرآن الكريم وردت بها قصة آدم عليه السلام يمكننا أن نستخلص أن أبانا الأول هذا كان أيضاً أول هذه النخبة التي اصطفاها الله لتبلغ الرسالة الإلهية إلى الناس . وإذا كانت المعجزة من ضرورات الرسول ، وخصائص الرسالة فآدم عليه السلام تحوطه المعجزات من كل جانب : فخلقه معجزة ، وعلمه معجزة ، وأطوار حياته معجزة إذ في كل هذه خرق لنواميس الطبيعة وهو معنى المعجزة . ومن مظاهر نبوته ما حكاه القرآن الكريم : ﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ﴾[22] . فآدم عليه السلام منذ خلق إلى أن توفاه الله كان على صلة بالله لا يعرف له خالقاً أو رازقاً ومتصرفاً في أمره إلا الله . وفيما يحكيه القرآن عن ابني آدم ما يفيد وجود الاعتقاد لديهما بالله الواحد : ﴿ واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين* لئن بسطت إليّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين ﴾[23] وبالجملة فإن هذه الأسرة التي بدأ بها تاريخ الانسان على الأرض قد كان أفرادها يؤمنون بالله الواحد ، وكان رسولهم هو أباهم آدم عليه السلام .

---

(22) الآية 37 البقرة .

(23) الآيتان 27 ـ 28 المائدة .

ولسنا في حاجة إلى كثير من الاستنتاجات[24] لاثبات نبوة آدم ورسالته إذ يكفينا ما جاء في القرآن الكريم بهذا الصدد : ﴿ إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين ﴾[25] لكن الرسالة بالمفهوم العام قد بدأت بنبي الله نوح عليه السلام حيث تكاثر النسل فألّفوا ما يعرف بالقوم ، وظهر بينهم الانحراف عن عبادة الله إلى عبادة الأوثان : ﴿ وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً . ولا يغوث ويعوق ونسراً وقد أضلوا كثيراً ﴾[26] وقد كانت خلاصة رسالة نوح عليه السلام إليهم : ﴿ إني لكم نذير مبين أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون ﴾[27] وتبقى صرخة الرسول ماثلة في ضمير الأمة حياته وقليلاً بعد مماته لكن سرعان ما يخبو الضوء فترة فيسود الظلام ، وينحرف الناس ـ وما أسهل وما أسرع ما ينحرف الناس ـ عن العقيدة الصحيحة التي مصدرها الوحي إلى أنماط من العقائد الضالة تنتشر بين أفراد الأمة كأن لم تؤمن بالأمس لا بل تتسرب إلى الأمم الأخرى فتكون الحاجة إلى رسالة جديدة ، ورسول يدعو إلى التوحيد من جديد . وهكذا كان الشأن بعد رسالة نوح عليه السلام : فقد بعث الله هودا عليه السلام إلى عاد قومه يجدد دعوة نوح ، ويدعو قومه إلى عبادة الله وحده فرسالته ـ شأنها شأن كل رسالة ـ قائمة على عنصري الهدم والبناء : هدم عقيدة الشرك بكل مظاهره ، وبناء عقيدة التوحيد على أساسها المتمثل في الايمان الفطري بالله الواحد : ﴿ وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إن أنتم الا مفترون ﴾[28] ورغم ما يقدمه هود عليه السلام إلى قومه من ضمانات الايمان بالله ، ونتائج هذا الايمان المعنوية والمادية إلا أن رد القوم لم يكن

---

(24) أثيرت قضية نبوة آدم في عدد من التفاسير بصورة بين الإيجاز والتفصيل ، والتلميح والتصريح . والتفسير الكبير للفخر الرازي أكثر التفاسير المتداولة تفصيلاً لهذه القضية ـ فيما أعلم ـ ومن التفاسير التي تناولت هذه القضية :

ـ تفسير الطبري . الجزء السادس . ص 326 . الطبعة الثانية . دار المعارف بمصر .

ـ تفسير السراج المنير للشربيني . المجلد الأول . ص 209 . طبعة دار المعرفة بيروت .

ـ تفسير فتح القدير للشوكاني . الجزء الأول ص 333 . الطبعة الثانية . مصطفى الحلبي .

ـ تفسير مجمع البيان للطبرسي . المجلد الأول ص 433 . طبعة دار إحياء التراث العربي بيروت .

ـ تفسير روح المعاني للألوسي . الجزء الثالث ص 131 . طبعة دار احياء التراث العربي بيروت .

(25) الآية 33 آل عمران .

(26) الآيتان 23 ـ 24 نوح . وفي ص 143 من التفسير الكبير للفخر الرازي أثناء تفسيره لهاتين الآيتين توجد نقول ومباحث لطيفة عن الوثنية والصابئة .

(27) الآيتان 2 ـ 3 نوح .

(28) الآية 50 هود .

متلائماً مع أسلوب الدعوة : ﴿ قالوا يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين . إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ﴾[29] ويمضي هود عليه السلام مع هؤلاء المعاندين إلى آخر الشوط حتى لا تكون لهم حجة بل تكون الحجة عليهم : ﴿ فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ويستخلف ربي قوماً غيركم ولا تضرونه شيئاً إن ربي على كل شيء حفيظ ﴾[30] .

وقد كانت الحال مع ثمود قوم صالح عليه السلام مثلها مع من سبقهم : دعوة إلى نبذ الشرك ثم عبادة الله الواحد . وفي حياة هؤلاء القوم تبرز سمات خاصة تحكم ذلك المجتمع ، وبعض هذه السمات لا يستقيم مع الايمان بالله الواحد ، والخضوع التام له وحده . لقد انقسم هذا المجتمع إلى طائفتين : طائفة تضم المستكبرين ، وأخرى تتألف من المستضعفين . وانقسام المجتمع على نفسه ظاهرة تنم عن خلل في بناء هذا المجتمع ، وليست من طبيعة مجتمع يؤمن بالله ناهيك عن نزعة الاستكبار والترفع لدى بعض أفراد الأمة فتلك نزعة لا تتفق والخضوع لله ، ولا تتناسب مع الاقرار بالعبودية لله . ومن ثم فهي داء ينخر في جسم الأمة ، ويؤدي بها حتماً إلى التهلكة . ومن هذه الأدواء المهلكة للأمة العاصفة لبنائها الاجتماعي ما يظهر في حياة هذه الأمة أو تلك في القديم أو في الحديث من صور هذا الجدل العقيم ، والحوار غير المتكافىء ، والتعصب للرأي بقصد المعارضة لذاتها : ﴿ قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون . قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون ﴾[31] لقد أدى تطور المجتمعات وتعاقبها والتأثر والتأثير المتبادل بينها إلى ظهور صور من الانحراف تتعدى قضية العقيدة في الظاهر لكنها في الحقيقة متصلة بها أشد الصلة . ذلك بأن سلوك الأفراد ومن ثم السلوك الجماعي العام في هذه الأمة أو تلك إنما ينبني على عقيدتهم ، ومدى قوتها وتأثيرها الواضح فيهم ، وتأثرهم القوي بها .

- 10 -

ومن خلال ثلاث حقب تاريخية متعاقبة على ثلاث أمم من الناس استقبلت كل

---

(29) الآيتان 53 ـ 54 هود . يراجع في تفسير هاتين الآيتين الكشاف للزمخشري . المجلد الثاني ص 403 .

(30) الآية 57 هود .

(31) الآيتان 75 ـ 76 الأعراف . يرجع في تفسير الآيتين إلى الفخر الرازي . الجزء الرابع عشر ص 164 .

أمة منها رسالة من رسالات الله يبلغها أحد رسله الكرام. من خلال ذلك كله تبرز لنا عناصر متماثلة وأخرى متباينة :

● دعوة إلى عبادة الله وحده ، ونبذ كل مظاهر الشرك .

● معارضة قوية لدعوة الرسول يمثلها معظم القوم ، أو تقوم بها وتنظمها الفئة المستكبرة منهم .

● هذه المعارضة تتكىء على أسباب واهية ، وتركن إلى الشرك ، ولا تقدم أسباباً أو دواعي مقنعة لهذا الركون ، ومنطقها في رفض الدعوة يعتمد على صور من المغالطة والتمويه .

● عدم الاستفادة من تجارب الأمة أو الأمم الماضية وما آلت إليه بسبب عنادها واستكبارها .

● إذا ابتعدت الأمة عن هدى الله ضلت عن السبيل أي عن الحق في العقيدة وفي السلوك الفردي والجماعي .

ولعله مما يلفت النظر حقاً أن هذه الحقائق والظواهر الاجتماعية تحكم الناس جميعاً : تحكم الأفراد وتحكم الأمم في القديم وفي الحديث كذلك كما تنبئنا بذلك النصوص القرآنية المثبتة هنا ، وكما تنبئنا كذلك نصوص قرآنية كثيرة غيرها ، وأعم منها تخاطب الانسان متحررة من قيود الزمان والمكان .

- 11 -

العقيدة شأنها شأن كل الحقائق الاجتماعية تبرز في تاريخها بعض المعالم والمواقف التي يكون لها أثر بارز في كل حقب هذا التاريخ ، ويتأكد هذا الأثر إذا ظهرت هذه المواقف وتلك المعالم في حقبة من التاريخ وسطى فتكون بذلك خلاصة لما تقدمها ، وتمهيداً لما يلحقها . ونبي الله إبراهيم عليه السلام خير من يمثل هذا الوضع المتميز في تاريخ العقيدة ، والإيمان بالله الواحد ومن ثم كان لرسالته هذا الطابع الفريد وإن اتفقت مع ما تقدمها ، وما لحقها من رسالات الله في الأصول العامة .

لقد نهج نبي الله إبراهيم عليه السلام نهجاً خاصاً في الدعوة إلى عبادة الله الواحد ونبذ مظاهر الشرك ، وتسفيه عبادة الأوثان ، وإقامة الحجة على من ادعى

واهماً الاتصاف بصفات الله . إن نبي الله إبراهيم عليه السلام يقدم مثلاً عالياً للداعية المسلم في منهج الدعوة ، وخلق الداعية من سعة الخلق ورحابة الأفق ، والصبر على معاندة الخصم ، والمضي معه إلى آخر الشوط في الحوار . والقرآن الكريم يبرز لنا في أكثر من موضع هذه السمات المتميزة في حياة هذا الرسول الداعية . ولا غرو بعد هذا أن يوصف الاسلام بأنه ملة إبراهيم ، أو أن تكون ملة إبراهيم هي الاسلام ، وأن يكون هذا الوصف دون غيره هو المميز للرسالة الخاتمة لرسالات الله إلى الناس : ﴿ قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم . ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين . قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين . لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾[32] .

- 12 -

وقبل أن نجاوز بهذا الحديث هذه المرحلة المهمة في تاريخ العقيدة نُسجل هذه الحقيقة . إن العقيدة الصحيحة تمثل بذاتها أساس البناء للمجتمع السليم . فإذا وجد خلل مّا في مجتمع مّا فإن ذلك يرجع بالدرجة الأولى إلى ضعف في العقيدة أو انحراف في فهمها وهذا الأمر قد يستدعي معالجة خاصة وسريعة . وفي عهد نبي الله إبراهيم عليه السلام في واحد من المجتمعات استشرى مرض اجتماعي كأنه السرطان يفتك بأولئك القوم ، وهو مرض مستجد في حياة الناس في تلك الفترة . وانتشاره بينهم ينذر بكارثة اجتماعية . لقد استدعى هذا المرض علاجاً سريعاً من أجل الناس جميعاً فبعث الله نبيه لوطا ينذر ذلك المجتمع الذي انهار خلقياً وسار في حياته الاجتماعية ضد ناموس الله في الطبيعة ، وفي اتجاه معاكس لحياة الفطرة في الانسان .

لقد كان إبراهيم عليه السلام يحاور عبدة الأوثان ومستلهمي النجوم لينقلهم إلى العقيدة الصحيحة . وفي ذات الوقت كان لوط عليه السلام ينذر مرتكبي الفاحشة ليردهم إلى رشدهم ، وكان عملا الرسولين متكاملين فالبذور الصالحة لا تنبت في الأرض السبخة .

---

(32) الآيات : 161 ـ 162 ـ 163 الأنعام . في تفسير هذه الآيات الثلاث يرجع إلى زاد المسير في علم التفسير لابن الجزري . الجزء الثالث ص 160 . الطبعة الأولى . المكتب الاسلامي للطباعة والنشر بيروت .

لقد كانت نهاية قوم لوط درساً لكل الأمم في التاريخ قديماً وحديثاً لتضرب بيد قوية على أيدي العابثين بقيم المجتمع ، ولتستمسك بحبل الله فذلك وحده سبيلها إلى البقاء .

بنقلة تاريخية أخرى نصل إلى مدين قوم شعيب حيث يواصل هذا الرسول الكريم دعوة إخوته الرسل السابقين : ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين ﴾[33] فهذا الرسول الكريم بجانب دعوته إلى عبادة الله الواحد ، ونبذ عبادة الأوثان في مجتمع مدين تواجهه في هذا المجتمع ظاهرة اجتماعية سيئة تمس الناس في حياتهم اليومية ، ولا تتفق وشعور المؤمن الصادق في إيمانه المتوكل على ربه الرازق تلك هي ظاهرة التطفيف في الكيل والميزان . وهذه الظاهرة إذا استشرت في مجتمع دل ذلك على وجود نفوس خبيثة جشعة لا تتفق وحقيقة الايمان ، وهي في ذات الوقت تتناقض مع العدل الذي هو ركيزة من ركائز بناء المجتمع المؤمن . من أجل ذلك اقترنت دعوة نبي الله شعيب عليه السلام إلى عبادة الله وحده بمحاربة هذه الظاهرة ، والتنديد بها . فالايمان بالله الواحد لا يجد قبولاً في مجتمع يتعامل أفراده على هذا النمط من السلوك الاجتماعي حيث يظهر الجشع والأنانية والأثرة وحب الذات بدل القناعة والتضحية والإيثار ، وإنكار الذات ، وحب الخير للجميع التي هي من خصائص المجتمع المؤمن الذي سعى كل رسل الله عليهم السلام إلى بنائه . لقد كانت رسالة نبي الله شعيب عليه السلام في قومه دعوة إلى تصحيح مسار العقيدة المنحرف ، وتقويم السلوك المعوج . وفي نهاية المطاف ، وفي آخر مراحل الحوار بين شعيب عليه السلام وقومه يرسم القرآن صورة واضحة المعالم لمنهج الرسل جميعاً بل ومنهج كل الدعاة إلى الحق في كل زمان ومكان تأتي صورة هذا المنهج على لسان هذا النبي في عبارات لها وضوح العقيدة ، ونصاعة الحق ، وفيها عبير النبوة ، وصفاء الروح لا تجنح إلى الخيال ، وإنما تنبع من الواقع كل ذلك في صورة بيانية ممتعة من صور بلاغة القرآن حيث الاعجاز وسحر البيان : ﴿ قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ورزقني منه رزقاً حسناً وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا

---

(33) الآية 85 الأعراف .

الاصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ﴾[34] أجل « الاصلاح » بإطلاق هو وحده لب الرسالات الالٰهية إلى كل المجتمعات البشرية . وبهذا المقياس يمكننا ، ويمكن الأجيال كلها تصنيف كل دعوات الاصلاح في القديم وفي الحديث وفي المستقبل. هذه الدعوات التي يقوم بها في الناس دعاة ليسو بأنبياء لأن النبوة قد ختمها محمد ﷺ بنص القرآن ولكن عمل هؤلاء الدعاة يدخل ضمن مهمة الاصلاح . وقد تعددت هذه الدعوات قديماً وحديثاً في الشرق وفي الغرب ، وفي هذا الخضم من الدعاة أصحاب الدعوات قد يدعى الاصلاح من هو موغل في الافساد والضلال ، وميزان النقد في هذا ما جاء في القرآن الكريم على لسان نبي الله شعيب عليه السلام : ﴿ وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ﴾[35] فالسير على منهج الله في طريق النبوة هو مقياس صدق الدعاة في هذه الدعوات . قد لا يقر هذا الميزان كل الناس فقد يعترض عليه ملحد ، أو زنديق ، أو ذو هوى مدعي عقلانية . وهذا الموقف من هؤلاء جميعاً لا يضير الحق في ذاته ولكن خطورته تكمن فيما يحدثه من أثر سلبي بيننا نحن داخل مجتمعنا الاسلامي . وعاصمنا من هذا هو ذلك المنهج به نحيا ، وإليه ندعو بعد أن نبرهن على صدقه وصلاحيته للناس كل الناس. ماذا كانت المحصلة في تاريخ تلك الرسالات الى تلك الأمم؟ لقد حذّر نبي الله شعيب عليه السلام قومه ، وأنذرهم عاقبة مثل عاقبة المجتمعات الخالية . لقد كانت تلك العاقبة هي الدمار لكل تلك المجتمعات الضالة التي لم تهتد بهدى الله . لقد تعددت صور الهلاك ولكن النهاية كانت واحدة لأن السبب كان واحداً كذلك : ﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون ﴾[36] لقد حذر نبي الله شعيب قومه من هذا المصير : ﴿ ويا قوم لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد ﴾[37] وقلما يستفيد الانسان من دروس الماضي له أو لغيره ولو فعل لأفلح ، والله تعالى جلت حكمته يمهل ولا يهمل وتلك سنّة من سنن الله التي تحكم مصير الانسان في هذا الكون ولا تبدل : ﴿ ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا ، وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في

---

(34) الآية 88 هود . يراجع الكشاف للزمخشري . المجلد الثاني ص 420 .

(35) الآية 88 هود « الهامش السابق » يراجع التفسير الكبير للفخر الرازي . الجزء الثامن عشر ص 44 .

(36) الآية 96 الأعراف .

(37) الآية 89 هود .

ديارهم جاثمين . كأن لم يغنوا فيها ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود ﴾[38] .

هذا طرف من تاريخ البشرية يتمثل في حياة مجتمعاتها الضالة والمؤمنة . إن الضلال يتمثل أول ما يتمثل في الشرك بالله ثم في الانحراف عن منهج الله ، وإن الايمان بالله وحده هو الذي يعطي لأفراد المجتمع قوة دافعة ، ويقيم المجتمع بأسره على أرضية ثابتة لا تنال منها كل الضربات التي تعمل على تصدع بناء المجتمع ، وهذا الايمان وحده هو الموئل يعود إليه المؤمن الذي أضنته الحياة فيجد في رحابه السكينة ، ويتزود منه بعناصر القوة والثبات في شتى مناشط الحياة وتلك كلها ضمانات ومقدمات لبناء مجتمع سعيد .

- 13 -

لقد شاءت حكمة الله أن يكون الهلاك هو مصير الظالمين الذين لم يستجيبوا لنداء الله متمثلاً في دعوات رسله عليهم السلام . أما المؤمنون الذين استجابوا لله وللرسول فقد كانوا يواصلون مسيرة الانسانية في هذه الحياة، رائدهم الايمان بالله الواحد ، وعمارة هذا الكون امتثالاً لأمر الله . وهذه الحقيقة التاريخية المستوحاة من القرآن الكريم تنتصب شاهداً على الصلة الوثيقة ، والارتباط الدائم بين صحة العقيدة متمثلة في الايمان بالله الواحد وما يشمل هذا الايمان من كليات الاعتقاد وجزئياته ، وبين أهلية هذا المجتمع أو ذاك للبقاء ، وعمارة الكون . إن النزعة المادية تغفل هذه الحقيقة لكن الواقع التاريخي يؤكدها . لقد ظهرت هذه التجربة الاجتماعية في فترة لاحقة كذلك في تاريخ الفراعنة في الفترة التي بعث فيها نبي الله موسى عليه السلام ليبلغ فيها رسالة الله إلى فرعون وقومه ، وليرفع الظلم الذي كان يعاني منه اليهود في مصر . وحوار موسى عليه السلام مع فرعون يمثل لوحة رائعة تظهر فيها بوضوح معالم أدب النبوة ، وهي في ذات الوقت تمثل صلف الانسان حين يخرج عن طوره فيطغى ثم لا يلبث حين يصطدم بالحقيقة أن يعود إلى ضعفه : ففرعون الذي قال لموسى عليه السلام في حواره معه : ﴿ لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين ﴾[39] هو نفسه الذي قال في موقف آخر حين أدركه الغرق فتبين ضعفه : ﴿ آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من

---

(38) الآيتان 94 ـ 95 هود .

(39) الآية 29 الشعراء .

المسلمين ﴾[40] لكن إيماناً في حال الفزع والضعف هذه لا يعتد به لأنه لا يمثل حقيقة الايمان .

- 14 -

ثم ماذا بعد ؟ إن سلسلة النبوة قد تعددت حلقاتها المضيئة في حياة كل المجتمعات البشرية ، ولم نورد من هذه السلسلة سوى بعض هذه الحلقات . وإذا تشابهت رسالات الله إلى الناس ، واتحدت دعوة جميع الرسل عليهم السلام فيما يدعون إليه من عبادة الله الواحد ، والحياة بمنهج الله بالمفهوم الشمولي لهذا المنهج فلعل هذا يسمح لنا بأن نكتفي بهذا القدر مع وضعنا في الاعتبار أن هناك مرحلتين تقتضيان لأهميتهما أن نتوقف عندهما ، ونخصص لهما حلقتين أو حلقة مشتركة من هذه الدراسة . أما هاتان المرحلتان في تاريخ عقيدة التوحيد فهما اليهودية والنصرانية ، ووضع هذه العقيدة لدى اليهود والنصارى .

وإذ نصل في هذه الحلقة من الدراسة إلى نهايتها نختم بهذه الملاحظات :

1 ـ إن القضية الأساس موضوع رسالات الرسل عليهم الصلاة والسلام هي توحيد الله ، وإفراده بالعبادة ، ونبذ كل صور الشرك ما ظهر منها وما بطن وهذه القضية هي المطروحة من قبل الوحي الإلهي على الفكر البشري خلال تاريخه الطويل بالقياس إلى حياة الانسان من أجل أن يتخذ هذا الفكر من هذه القضية موقفاً صريحاً لا مغالطة فيه ولا إكراه بعد أن يقلبها على كل وجوهها ، ويفحص كل براهينها . وحين نستخدم مصطلح « حرية العقيدة » يلزم أن نضع في اعتبارنا هذه المحصلة العظيمة من دلائل الايمان بالله الواحد ، وأن نتأمل هذه الهزات العنيفة التي منيت بها المجتمعات المشركة نتيجة شركها وعنادها ومعارضتها ووقوفها في طريق دعوة الدعاة

---

(40) الآية 90 يونس . في تفسير هذه الآية مجموعة مطالب أشار إلى بعضها الفخر الرازي في تفسيره . الجزء السابع عشر ص 154 .

إلى جانب المراجع المثبتة مع هذه الهوامش استعنت كذلك بثلاثة مراجع وهي .

1 ـ معجم ألفاظ القرآن الكريم . اعداد مجمع اللغة العربية بمصر . طبعة الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية 1959 م .

2 ـ الموسوعة القرآنية . المجلد الخامس . الباب الأول .

الناشر : سجل العرب . القاهرة 1969 م .

3 ـ مناهج الجدل في القرآن الكريم . الدكتور زاهر عواض الألمعي « السعودية » طبعة بدون تاريخ .

إلى الحق في الاعتقاد والخير في السلوك أما قضية وجود الله فلم تكن مثار جدل ، ومنطق الالحاد متهافت . وظاهرة الالحاد أكثر ما تكون فردية وقد تفرض بوسيلة أو بأخرى على بعض المجتمعات لكنها تزول بزوال أسباب وجودها فتعود هذه المجتمعات إلى رشدها ، ومن ثم إلى ممارسة حريتها في الاعتقاد ، ولعله من الملاحظ أن من أسباب نشر الالحاد تزييف حقيقة الايمان في محيط هذا القطيع أو ذاك من قطعان الملحدين وإبراز الجانب المادي وحده في حياة الانسان . ومن أسباب انتشار الالحاد كذلك اختفاء أثر الايمان في الحياة لدى المجتمعات التي تدعي الايمان حيث يفرغ الايمان من محتواه . أما الحقيقة التي لا يتأتى للملحد أن يماري فيها فهي أنه إذا كان للايمان بالله ألف دليل فما للالحاد من دليل .

2 ـ من يضع الوحي والعقل على طرفي نقيض فإنما يضعهما في غير الوضع الصحيح لكل منهما وهو بذلك يسيء إليهما معاً . والوحي والعقل حقيقتان لا مراء في أولاهما لدى المؤمنين ، ولا خلاف في الثانية لدى العقلاء جميعاً وإنما مثار الخلاف حول وظيفة كل منهما وفي حدوده . ولعل الفيصل في ذلك هو التجربة . وتجربة الانسانية مع العقل أثبتت لها إخفاقه ، أو تخبطه على الأقل في كثير من قضاياها . ومنها قضية الاعتقاد ، وقضية الأخلاق وقوانينها . وقضية التشريع . وأسباب الاتفاق جلية لمن يبحث عنها . أما الوحي فكلمته واضحة ، وموقفه ثابت وصريح ، وحلوله جذرية في كل هذه القضايا بكلياتها وجزئياتها كذلك . وليس هذا وضعا للعقل والوحي موضع التقابل إنما هو تبيان لطبيعة ووظيفة كل منهما. وقضية الايمان بالله الواحد لا تستقيم في العقل بدون الوحي ، وتجربة المفكر اليوناني الكبير أرسطو في هذا المجال مشهورة شهرة هذا الفيلسوف نفسه لقد أخفق من حيث ظن الكثيرون أنه أفلح وهو في هذا معذور لأن وسيلته ـ العقل وحده ـ لا تتناسب مع غايته ـ معرفة الله ـ . لكننا من جانب آخر نرى أن الوحي ذاته يبرز دور العقل في فهم دلائل التوحيد التي جاء بها الوحي . وفي الكشف عن مغالطات الشرك وأوهامه . وهذه إحدى خصائص الاسلام ينفرد بها عن اليهودية والنصرانية السائدتين اليوم لدى اليهود وعند النصارى ليس هذا ادعاء ندعيه إنما آيات القرآن من جانب ، وفصول العهدين القديم والجديد من جانب آخر ، والمقارنة بين هذه الآيات وتلك الفصول، هذه المقارنة هي التي تؤكد للباحث هذه الحقيقة وهذه الحقيقة لا يستهان بها وبالخصوص في هذه الآونة إذ هي التي يمكن أن تجعل الانسان الغربي ، والانسان غير

المسلم بعامة إذا ترك وشأنه يقف وجها لوجه مع القرآن يتفحصه ، ويتأمل حقائقه . ولعل هذا هو هدف الدعوة الاسلامية وواجب الداعية المسلم .

3 - من خلال جولتنا القصيرة هذه مع بعض الرسالات الإلهية تبين لنا أن كل هذه الرسالات ذات طابع اجتماعي بارز . أما ما قد يلاحظ من الفردية فإن ذلك يكمن في القناعة الذاتية بحقيقة الايمان بالله الواحد ثم في المسؤولية الفردية عن السلوك الذاتي داخل المجتمع المؤمن ، وتحمل تبعات هذه السلوك في العاجلة والآجلة . وهذا الطابع الاجتماعي يبرز بصورة واضحة في الرسالة الإلهية الخاتمة التي جاء بها محمد ﷺ حتى ليتضاءل بجانب هذه الصورة كل ما عداها . وتعدد صور التشريع ، وتنوع مسائله وقضاياه من خلال تصفحنا لآيات القرآن الحكيم كل أولئك يوقفنا على هذه الحقيقة . أما أن الايمان قضية شخصية فتلك فكرة أبعد ما تكون عن حقيقة الايمان . لقد ظهرت هذه الفكرة في الغرب مع ظهور الاتجاه العلماني وربما تسربت من بيئات اخرى لكنها انتشرت هناك وأقرتها الكنيسة على اعتبار أنها الورقة الأخيرة في الصراع المحتدم بينها وبين السلطة . فهذه الفكرة الغربية والغريبة عن مفهوم الايمان لا تستقيم مع نصوص القرآن جملة وتفصيلاً ومن ثم فليس لها حق الوجود داخل المجتمع الاسلامي .

4 - إن عنصري الدين الحق هما العقيدة والشريعة . والعنصران معاً يمثلان نسيجاً واحداً لا يستقل فيه أحد العنصرين عن الآخر ، وأية محاولة للفصل بينهما تمثل القضاء على الدين ، وتجربة الغرب مع دين الكنيسة تؤكد هذه الحقيقة .

وإذا كانت العقيدة تتسم بالثبات والوحدة في كلياتها وجزئياتها لدى كل الأمم في كل العصور فإن طبيعة المجتمعات المتطورة اقتضت أن تكون لكل أمة شريعتها مع اتحاد الغاية في كل الشرائع . والشريعة بوجه عام تمثل البعد الاجتماعي للعقيدة أو قل إنها المرآة الصادقة التي تنعكس عليها صورة الاعتقاد لدى الجماعة المؤمنة .

5 - وإذا صح هذا القول أمكننا أن نؤكد أن الترويج لفكرة التطور في العقيدة لا يقوم على أساس ، وليس له ما يسنده من مفهوم العقيدة ذاتها . وهذه الفكرة إن هي إلا أسطورة روجت لها جماعة المستشرقين من أجل زرع بذور الشك حول الاسلام . أما من حيث واقع العقيدة الاسلامية المستمد من النصوص القرآنية التي عالجت قضية الاعتقاد فإن فكرة تطور العقيدة تتعارض مع ما أثبته القرآن عن العقيدة . ولعل هذا يعطينا الحق في القول : إن وثيقة الايمان إنما هي القرآن .